المدرسة الفارسية في دمشق

الدكتورة ليلى الصباغ(*)

(القسم الثاني)(1)

والأمر الثاني الذي كان الحافز لاختيار هذه المدرسة موضوعًا للدراسة، كما ذُكر في المقدمة، هو العثور ضمن وثائق المحاكم الشرعية بدمشق، على بعض الوثائق التي تفصح عن بعض أمورها. ولإدراك فحوى تلك الوثائق، لابد من الرجوع إلى نشأة تلك المدرسة ونشاطها، قبل تاريخ تلك الوثائق في أواخر القرن الحادي عشر للهجرة، والنصف الأول من القرن الثاني عشر (السابع عشر للميلاد والنصف الأول من الثامن عشر)، وإذا كانت الوثائق لا تُنبئنا عن مثل تلك المعلومات، فإن ما دوّنه النعيمي عنها، وما ذكره مؤرخو التراجم في سياق تراجمهم، يزودنا ببعض تلك المعطيات الرئيسة.

وإذا ما ابتدئ باسم المدرسة، فقد يتبادر إلى الذهن، كما يظن كثيرون، بأنها سميت بالفارسية نسبة إلى «الفُرْس»، ولسبب من الأسباب، إلا أنه من المعروف أن معظم المدارس التي أنشئت في كل من المرحلة الزنكية والأيوبية

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

(1) نشر القسم الأول في الجزء الأول من المجلد الثالث والثمانين ص ٣٥- ٦٢.

والمملوكية، قد نسبت إلى أسماء مؤسسيها أو واقفيها. ومدرستنا ((الفارسية))[2] هذه نُسبت هي الأخرى إلى مؤسسها الأمير سيف الدين فارس التيمي (ت٨١٠هـ)، وكانت ذو دارًا لنائب دمشق المملوكي تنم (ت٨٠٢هـ)[3] المعروف أيضًا باسم ((تَنْبَك)).

ويبدو أن إنشاءه لها قد حدث قبل سنة ٨٠٢هـ، وهو تاريخ مقتل أستاذه

(2) ليست المدرسة الفارسية هذه في دمشق هي التي تحمل وحدها هذا الاسم في البلاد العربية، فهناك ثلاث مدارس أخرى بهذه التسمية: اثنتان منها في القدس، بالقرب من المسجد الأقصى، وهما من وقف الأمير المملوكي ((فارس التكيّ بن الأمير قطلو ملك بن عبد الله)) نائب السلطنة بالأعمال الساحلية والجبلية ونائب غزة. وقد حافظت المدرستان على نشاطهما التعليمي حتى النصف الأول من القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي، بل وبقيت إحداهما دارًا تضم كتب المسجد الأقصى حتى مطلع القرن الثالث عشر الهجري.

انظر حول المدرستين:

١- حسن عبد اللطيف الحسني: تراجم أهل القدس في القرن الثاني عشر للهجرة. دراسة وتقديم صالح النعيمات: جزءان في مجلد واحد، عمان، ١٩٨٥/٤٥- ٤٦.

٢- محمد كرد علي: خطط الشام، ج٦/١١٧.

– المدرسة الثالثة التي تحمل اسم ((الفارسية)) أيضًا تقع في القاهرة، وأنشأها ((فارس البكّي)) المشار إليه أعلاه سنة ٧٥٦هـ/١٣٥٥م. وقد تخربت مع الزمن، وبقي منها عمود في وسطها فقط حتى ١٢٨٠هـ/١٨٦٦.

– انظر: علي باشا مبارك: الخطط التوفيقية، ج٦/٣٠ (طبعة القاهرة ١٨٧ نسخة مصورة عن بولاق ١٣٠٥هـ.

– المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جزءان، القاهرة، ج٢/٣٦.

(3) لم يشر السخاوي في كتابه ((الضوء اللامع في أهل القرن التاسع)) (١٢جزءًا، القاهرة، ١٣٥٤هـ) في ج٦/١٦٣، وفي الترجمة رقم (٥٤٣) فيه، إلى معلومات تعرّف به، واكتفى بتعريف أستاذه ((تنبله)).

«تَنْبَك»[4]، لأن النعيمي يشير استنادًا إلى أقوال المؤرخ شهاب الدين بن حجي السعدي[5]، أن ذلك قد تم في حياة أستاذه تَنْبَك، أو أنه وقف عليها حوانيت إلى جانبها، وجعلها وقفًا على إمام وغيره، ويضيف النعيمي نقلاً عن الأسدي [6]، بأن الوقف كان أيضًا على قرّاء وأيتام وغير ذلك. إلا أن فارس

(4) هو سيف الدين تَنْبَك الحسني الظاهري، كان من كبار خاصكية السلطان الظاهر برقوق، وقد ترقى في المناصب حتى أُسندت إليه نيابة دمشق سنة ٧٩٥هـ/١٣٩٢م، وبقي فيها سبع سنوات أي حتى ٨٠٢هـ/١٣٩٩هـ. وعند وفاة أستاذه سنة ٨٠١هـ/ ١٣٨٩م أعلن «تنم» العصيان، واستولى على قلعة دمشق، وعلى حمص وطرابلس، فحاربه المماليك وانتهى أمره بالقتل في قلعة دمشق. ودفن بتربة في «ميدان الحصى» خارج دمشق.
انظر: السخاوي: الضوء اللامع ج٣/٤٤ – وابن طولون إعلام الورى بمن ولي نائبًا من الأتراك بدمشق الشام، تحقيق الأستاذ محمد أحمد دهمان – دمشق، ١٩٦٤/٥٦. – وأحمد محمد دهمان: دمشق في عهد المماليك – دمشق ١٩٦٤/١٧٨–١٨٥.

(5) هو: أحمد بن عمر بن حجّي بن موسى السعدي الدمشقي (٧٥١–٨١٦هـ)، حافظ ومؤرخ. ولد وتوفي بدمشق، ويلقب بمؤرخ الإسلام. صنف عدة كتب هامة منها: «الدارس من أخبار المدارس» احترق غالبه عند هجوم تيمورلنك على دمشق سنة ٨٠٣هـ/١٤٠١م، وألّف كتابًا في التاريخ ذكره تلميذه ابن شِقُّده، وقال أنه ابتدأه بسنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م وختمه سنة وفاته. وقد درّس في عدد من مدارس دمشق ومنها المدرسة الفارسية سنة ٨١١هـ/١٤٠٨م.
انظر: السخاوي: المصدر نفسه ج١/٢٦٩ – ابن طولون: القلائد الجوهرية ج١/١١٢– النعيمي، المصدر نفسه، ج١/١٣٨–١٤٣.

(6) هو: أبو بكر أحمد بن محمد بن عمر الأسدي الشُّهبي الدمشقي: (٧٧٩–٨٥١هـ): فقيه الشام في عصره ومؤرخها، من أهل دمشق، عُرف بابن قاضي شُهْبة، لأن أبا جده أقام قاضيًا بشُهبة من قرى حوران أربعين سنة. ومن تصانيفه تاريخ كبير ابتدأ به من سنة ٢٠٠هـ/٨١٥م إلى سنة ٧٩٢هـ/١٣٩٠م. وله ذيل على تواريخ المتأخرين كالذهبي والبرزالي، ابتدأه سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م إلى سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م، في ثماني مجلدات، واختصره وسماه: الإعلام بتاريخ الإسلام. وقد حققه الدكتور عدنان درويش في أربعة مجلدات. وله مصنفات هامة أخرى.
انظر: مقدمة المجلد الثاني المحقق من تاريخ ابن قاضي شهبة، دمشق، ١٩٩٤/١١– ٣٦ – والضوء اللامع ج١/٢١ – السيوطي: نظم العقيان في أعيان الأعيان، نيويورك ١٩٢٧/٩٤ – الزركلي: الأعلام، ج٢/٣٥.

التنمي اشترى سنة٨٠٨هـ، بإذن السلطان في مصر، قرية صحنايا[7] في الشام، ووقفها على المدرسة أيضًا، وبصفة خاصة على شيْخَيْن مدرسَيْن للعلم، على أن يُقرأ عليهما أنواع العلوم من المذاهب الأربعة، وجعل لكل شيخ في الشهر ثمانين درهمًا[8]، وللطلبة كل شهر خمسة وأربعين درهمًا، وجعل عددهم عشرة، وكذلك «المقرئ أي قراء القرآن ولكل منهم خمسة عشر درهمًا، كما خصَّ كل يتيم في كل شهر بخمسة عشر درهمًا أيضًا، وفي كل موسم وعيد، لكل واحد خمسة عشر درهمًا؛ وشرط للحرمين[9] جملة وجعل الفاضل[10] بعد ذلك لذريته. ويضيف النعيمي على لسان الأسدي بأنه قد استقر فيها فقهاء[11] ونواب

(7) قرية في غوطة دمشق الغربية، تبعد خمسة عشر كيلو مترًا عن دمشق، وتقع في منطقة سهلية ويعمل سكانها بالزراعة معتمدين على مياه نهر الأعوج، وعلى بعض الآبار الارتوازية.
- المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، ج٤/١١٧.
- أحمد وصفي زكريا: الريف السوري – محافظة دمشق، جزءان، دمشق، ١٩٥٧م، ج٢/١٧٧-١٧٩.

(8) الدرهم هو وحدة النقد الفضي في العالم الإسلامي، ولقد اختلف وزنه مع الزمن والمكان. ولكن يقدرون أنه يعادل في المتوسط ٢.٩١-٢.٥ غرامًا من الفضة.
انظر: في دائرة المعارف الإسلامية بالفرنسية الجديدة، المجلد (٢) G.C. Miles, Dirham, ص: ٣٢٨- ٣٢٩. – النعيمي: المصدر نفسه، ج١/٤٢٨.

(9) المقصود بالحرمين: الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة. وهما غنيان عن التعريف وكان من نصيبهما كما أتى في وثائق المحاكم الشرعية (٣) أفدنة في قرية صحنايا من أصل (٢٤) فدانًا وهي مجموع فدن القرية، كما كان للمدرسة الفارسية (٢١) واحد وعشرون فدانًا منها.

(10) إن المقصود من كلمة (الفاضل) هنا، أي (المتبقي) مما وقف، ويكون لذريته.

(11) لا تعني كلمة الفقيه هنا العالم بالفقه فقط، وإنما كان يُقصد منها أيضًا:المنتفع بالوقف. وكان يطلق على هؤلاء المنتفعين صفة الفقيه وصفة الخطيب أحيانًا.

القاضي، وأعيان الطلبة.

ولم يقتصر وقف المدرسة الفارسية على قرية صحنايا فقط، وإنما كان من وقفها أيضًا ربع قرية فزارة [12] من عمل الجولان، والعُشْر في قرية بالين[13] من عمل البقاع[14]،وربع سوق السلاح شركة المدرسة الأمينية[15] وبيت ابن الزلق[16]. ولا يُعرف بالضبط إذا كانت الموقوفات الأخيرة من وقف فارس التنمي أم أضيفت من غيره.

أما حول نشاط هذه المدرسة منذ نشأتها وحتى تدوين النعيمي لتاريخها في

انظر: بحث الوقف Wakf، في دائرة المعارف الإسلامية باللغة الفرنسية، الطبعة الأولى وهي من أربع مجلدات، وبحث الوقف جاء في المجلد (٤) وفي الصفحة (١١٥٧).

(12) قرية تقع على بعد (١٥) كم جنوبي القنيطرة، وشمالي شرقي الخشنية، تعرضت للاحتلال الإسرائيلي سنة ١٩٦٧ – وانظر أيضًا: المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، ج٤/٤٧٨ ووصفي زكريا: المصدر السابق، ج٢/٤٨٣.

(13) قرية من قرى سهل البقاع، لم يُعثر على موقعها بالدقة في الخريطة، وفي الكتب الجغرافية المتوفرة.

(14) البقاع هو كما هو معروف الهضبة التي يتكون منها الجزء الأوسط من المنخفض الانهدامي الشامي، بين سلسلة لبنان الغربية والشرقية.

انظر: س. هارتمان: البقاع في دائرة المعارف الإسلامية المعربة، ج٤/٣٣-٣٤.

– ياقوت الحموي: معجم البلدان: ٥ أجزاء، بيروت، ١٩٥٥، ج١/٤٧٠.

(15) قيل: إنها أول مدرسة بنيت للشافعية بدمشق، تقع جنوبي باب الزيادة من أبواب الجامع الأموي. ويقع بابها في سوق السلاح، بناها أتابك العساكر بدمشق «أمين الدولة كمشتكين» المتوفى ٥٤١هـ/١١٤٦م؛ ووقف عليها سنة ٥٤٤هـ غالب ما حولها من سوق السلاح وأوقافًا أخرى وتقع الآن في سوق الحرير، وقد اختلس الجيران بعضها.

– النعيمي، ج١/١٧٧-٢٠٥، – العلموي: المصدر نفسه/٣٣-٣٤، – كرد علي: خطط الشام، ج٦/٧٦.

(16) لا يعرف موقع هذا البيت، أما ابن مزلق فهو محمد بن علي بن أبي بكر (٧٥٤-٨٤٨هـ) كان تاجرًا كبيرًا من أثرياء دمشق. أنشأ على درب الشام إلى مصر حانات، منها بالقنيطرة، وفي جسر بنات يعقوب، وعيون التجار،وكان له مآثر مماثلة في درب الحجاز، ووقف على سكان الحرمين الشريفين.– النعيمي ج١/٢٠– ٢١.

أواخر القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، فقد شرح النعيمي ذلك النشاط، على عادته في المدارس الأخرى، وبيَّن أن المدرّسَيْن اللذين كانا أول من درّسا فيها بعد نشأتها، وذلك عام ٨١١هـ، هما الشيخ شهاب الدين أحمد بن حجي السعدي، الذي درّس فيها درسًا مختصرًا في تفسير أول سورة النساء [17]، والشيخ جمال الدين الطيماني[18] الذي قام بتفسير آية أخرى[19]. وحضر درسَ ابنِ حجي عزُّ الدين القاضي المالكي [20]، وبعض الفقهاء، وبقي الطيماني يدرِّس فيها حتى حضرته الوفاة، فاستقر ولده مكانه. ولكن لما كان صغيرًا، فقد استنيب عنه الشيخ تقي الدين الأسدي الشهير بابن قاضي شُهْبة[21]، وكان يجري درسه بعد عصر يوم الاثنين، ودرّس فيها «مختصر ابن

(17) هي السورة الرابع من سور القرآن الكري، والآية الأولى منها.

(18) هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن ركن الدين بن طيمان المصري ثم الدمشقي (٧٧١– ٨١٥هـ). من علماء الفقه الحنابلة، إلا أنه درّس الفقه الشافعي أيضًا، ولد في مصر ودرَّس فيها، وقدم دمشق عدة مرات، ثم أقام فيها، يفتي ويصنف؛ وقد درّس بعدة مدارس بدمشق، منها الفارسية ؛ كما ولي خدمة الخانقاه السميساطية. وقد شهد له تقي الدين الأسدي بأنه يروي دروسه بفصاحة وتعقل. وقتل في الفتنة بين السلطان الناصر بن برقوق وغرمائه، وكان في السابعة والأربعين من العمر. ودفن بدمشق. انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج٥/٥٠ – والنعيمي ج١/٢٥٦– ٢٥٧، – والأعلام ج٤/٢٧٢.

(19) النعيمي ج١/٤٢.

(20) هو محمد بن عبد الله بن محمد العز لمالكي. كتب بخطه لكثير ك «العبر» للذهبي. وكان حسن العقيدة، وانتقل إلى الشام، وتوفي سنة ٨٦١هـ، وقد جاوز السبعين من العمر. انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج٨/١١٤.

(21) انظر ترجمته في هامش (٨٧) من هذا البحث.

الحاجب))[22]، حيث درس عليه العالم برهان الدين بن مُفلح[23]، وكان يشاركه في التدريس، ويتناوب معه في الموعد، العالم شمس الدين الكفيري[24]. وبعد وفاته حلّ محل ابنه بدر الدين ابن تقيّ الدين بن قاضي شُهبة(ت ٨٧٤هـ)[25]، واستمر بها شيخًا للفقهاء حتى نزل عنها للشيخ تقي الدين بن قاضي عجلون [26].

(22) هو عثمان بن عمر، فقيه مالكي، ومن كبار علماء العربية (٥٧٠- ٦٤٦هـ) ولد في مصر وسكن في دمشق وتوفي بالإسكندرية. من تآليفه المشهورة: الكافية في النحو، والشافية في الصرف، ومنتهى السول والأمل في علمي الأصول والجدل. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٧/٢٤٨- ٢٥٠ - والأعلام: ج٤/٣٧٤.

(23) برهان الدين بن مُفلح، وإبراهيم بن محمد بن مُفلح المقدسي الدمشقي (٨١٦- ٨٨٤هـ) من كبار علماء الحنابلة، درّس في عدد من مدارس الحنبلية بدمشق. ومن تصانيفه: شرح المقنع، وسماه: المبدع، وانتهت إليه رئاسة الحنابلة، وعمل في القضاء.
ابن طولون: القلائد الجوهرية ج١/١٦١- النعيمي ج٢/٥٩- ٦٠.

(24) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد موسى العجلوني الكفيري الأصل، الدمشقي (٧٥٧- ٨٣١هـ)، من فقهاء الشافعية، وباشر نيابة القضاء، وولي التدريس في بعض المدارس، وله بعض التصانيف. - النعيمي ج١/٣١٣- ٣١٥.

(25) هو محمد بن أبي بكر بن أحمد بن محمد الأسدي الشافعي (٧٩٨ -٨٧٤هـ)، عالم بفقه الشافعية، ومن أهل دمشق مولدًا ووفاة. وكان في زمنه فقيه الشام، له عدة مؤلفات، منها: الدر الثمين في سيرة نور الدين الشهيد، وله شرح على المنهاج في الفقه.-السخاوي ج٧/١٥٥- النعيمي ج١/٢٢٤- الأعلام، ٦/٢٨٤.

(26) هو أبو بكر بن عبد الله أبو صدق (٨٤١- ٢٨هـ/١٤٣٨ - ١٥٢٢م) فقيه انتهت إليه رئاسة الشافعية بدمشق في عصره. كان شديد الانكار على الصوفية. درس في عدة مدارس بدمشق ومنها الفارسية، وله عة مصنفات.
انظر: الغزي: نجم الدين، الكواكب السائرة، ١/١١٤ - النعيمي ج١/٢٦. - العلموي: المصدر نفسه، /٦٦، وهو الذي ذكر بأن بدر الدين الأسدي، هو الذي نزل لابن قاضي عجلون عن التدريس فيها، - الأعلام، ج٢/٤٢.

ويبدو أنه لم يقتصر عمل المدرسة الفارسية في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي على التدريس وإقراء القرآن فقط، وإنما اتخذت أيضًا مقرًا لمحكمة القاضي الحنبلي[27]، الذي انتقل إليها من المدرسة الطومانية الحنفية[28] التي احترق بعضها أثناء واقعة تيمورلنك[29].

ومن المعلومات التي وصلتنا عن تلك المدرسة أيضًا، أنه في سنة ٨٣٨هـ/ ١٤٣٤م،كان يباشر نظر أوقافها الأمير سيف الدين أبو يزيد الناصري [30]، الذي كان رأس نوبة[31] نائب الشام تَنْبك منق المشار إليه سابقًا، وذلك نيابة عن زوجته بنت الأمير فارس الدوادار واقف المدرسة.

ويشير النعيمي استنادًا إلى أخبار الأسدي، أنه كان لها بواب اسمه جمال الدين

(27) النعيمي، المصدر نفسه، ج١/٥٤٢- ٥٤٣.

(28) كانت تقع تجاه دار الحديث الأشرفية. وفي سوق العصرونية القديم. وقد غُصِبت وأنشئ فيها خمّارة تدعى خمّارة بانكو، ثم صارت سوقًا إلى جانب المصرف الموجود. وقد حاول العلامة الشيخ يوسف المغربي، والد المحدث الشيخ بدر الدين الشهير، أن يعيدها سنة ١٢٧٠هـ، فلم يفلح. انظر النعيمي ج١/٥٤٢- ٥٤٣ - الحصني: ج٣/٥٥، -كرد علي ج٦/٢.

(29) أي عندما هاجم تيمورلنك مدينة دمشق سنة ٨٠٣هـ، وأقام فيها ثمانين يومًا، وحرقت المدينة وأصيبت معظم مشاهدها ودورها ومدارسها بأضرار فادحة، انظر حول ذلك كرد علي ٢/١٦٩- ١٧٤.

(30) أبو يزيد الناصري: لم يُعثر على ترجمة له غير ما ذكر بأنه كان أمير طبلخانة، وتوفي سنة ٨٣٨هـ، وأن نائب السلطنة في دمشق صلّى عليه عند وفاته، وحضر جنازته الأمراء والحجاب. انظر: النعيمي، ج٢/٣٠١- ٣٠٢.

(31) رأس نوبة النوب: هو عادة أمير بن مقدمي الألوف في الزمن المملوكي. وكان له الأمير على جميع المماليك السلطانية وإليه المرجع في المشورة عليهم وهو السفير بينهم وبين السلطان أو نائبه ابن كنّان، حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين، تحقيق: عباس صباغ، دمشق١٩٩١م ص١١٤- ١١٥.

العدوي، وإمام هو جمال الدين بن تقي الدين[32]؛ مما يدل على أنها لازالت عاملة.

وإذا كان النعيمي والعَلَمَوي[33] قد أفادانا عن بعض نشاط المدرسة الفارسية منذ تأسيسها وحتى مطلع القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، فإن المرحلة التي تلت فقيرة في معلوماتنا عنها. وقد يعثر الباحث هنا وهناك، في كتب الحوليات، مثل كتاب مفاكهة الخلان لابن طولون؛ وفي كتب التراجم للقرن العاشر، والحادي عشر، والثاني عشر للهجرة، التي دوّنها كل من نجم الدين الغزي، والمحبي[34]، والمرادي[35]، بعض معلومات تبين أنها بقيت عاملة، وأنها استقبلت للتدريس فيها عددًا من كبار علماء دمشق آنذاك. ففي

(32) لم يعثر للاثنين على ترجمة، سوى ماذكر عن عمليهم فقط.

(33) هو عبد الباسط بن موسى العَلْموي الشافعي (٩٠٧- ٩٨١هـ). عمل في الخطابة والوعظ في جامع السويقة ساروجة، وترأس المؤذنين في جامع بني أمية، وكان له معرفة في علم الميقات وعلم النغمة والتلحين، وقد اختصر كتاب المعيد في أدب المفيد للبدر الغزي، وكتاب مختصر تنبيه الطالب وإرشاد الدارس.
انظر ترجمته في مقدمة كتابه: ص/ب، جـ.

(34) محمد الأمين المحبي (١٠٦١- ١١١١هـ) مؤرخ موسوعي المعرفة وشاعر. دمشقي المولد والوفاة له عدة مؤلفات، منها في التاريخ:خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، وفي الأدب: نفحة الريحانة، وفي اللغة: قصد السبيل فيما في اللغة العربية من الدخيل. انظر تفصيلاً عنه في: – ليلى الصباغ: من أعلام الفكر العربي في العصر العثماني الأول، دمشق، ١٩٨٦م.

(35) هو محمد خليل بن علي (١١٧٣ -١٢٠٦هـ) فقيه ومؤرخ، كان مفتي الشام ونقيب أشرافها، ولد ونشأ في دمشق. أشهر مؤلفاته في تاريخ التراجم: سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، وعرف البشام فيمن ولي فتوى الشام.
انظر: مقدمة كتابه: ((عرف البشام))، تحقيق: محمد مطيع الحافظ ورياض مراد، دمشق١٩٧٩م. ص (هـ – ي) – والأعلام ج٦/٢٥٢.

مفاكهة الخلان مثلاً إشارة عابرة إلى أن الأمير يونس العادلي[36]، كان ناظر المدرسة الفارسية والحافظية[37] والصابونية[38]. كما أن النجم الغزي يُبيِّن في ترجمته أباه، محمد بدر الدين الغزي [39]، بأنه درّس في «الفارسية» إلى جانب

(36) هو الأمير شرف الدين الحلبي ثم الدمشقي المشهور بالعادلي، وبابن البغدادي؛ كان من تجار سوق الصابون بحلب، وكانت بيده معلمية الصابون. ثم انتقل إلى القاهرة وعمل فيها في خدمة ناظر الخاص المعروف بابن الصابوني. وقربه إليه السلطان المملوكي طومان باي الملقب بالعادل، ومن ثم عرف بالعادلي. وقد أرسله السلطان قانصوه الغوري رسولاً إلى السلطان العثماني سليم. وبقي مقربًا إلى الدولة العثمانية بعد زوال المملوكية.واستوطن دمشق وعرف بكرمه.وتوفي سنة ١٥٣٠م.
انظر: ابن طولون: مفاكهة الخلان، ج١/٣٣٧، ٣٤٥ و ج٢/٢٨، ٢، ٣٦، ٣٩، ١٣– ورضي الدين الحنبلي: در الحبب، ج٢/٦٢٠– ٦٢٢.

(37) المدرسة الحافظية: وهي في الأصل التربة الخاتونية، التي أقامتها الخاتون أراغون الحافظية سنة (٦٤٨هـ/١٢٥٠م)، وكانت امرأة عاقلة وثرية جدًا وعمّرت طويلاً، وقد عمّرتها بدرب الصالحية، وأنشأت فيها مسجدًا، ووقفت عليها أوقافًا كثيرة.
انظر: النعيمي ج٢/٢٤٣ – وابن طولون: القلائد الجوهرية، ج١/٣١٥.

(38) هي دار للقرآن الكريم خارج دمشق، جنوبي باب الجابية وبها جامع حسن وتربة للواقف وأخيه وذريتهما، أنشأها الخواجكي أحمد الشهابي البكري الدمشقي المعروف بالصابوني. وابتدأ عمارتها سنة ٨٦٣هـ وفرغ منها سنة (٨٦٨هـ). ووقف لها عددًا من القرى في الغوطة والبقاع وغيرهما، ظلت قائمة حتى المرحلة المعاصرة. وهي مدفن السادة بني البكري، وتقع قبالة تربة باب الصغير.– النعيمي ج١/١٣– ١٤ – كرد علي ج٦/٧٠– ٧١.

(39) هو محمد بن محمد بدر الدين بن القاضي رضي الدين الغزي (٩٠٤– ٩٨٤هـ)، درس على والده وعلى كبار مشايخ عصره بدمشق والقاهرة، وتولى عددًا من الوظائف الدينية كمشيخة القرّاء بالجامع الأموي، وإمامة المقصورة. ودرّس بالعادلية، والفارسية وغيرها. وبلغت تصانيفه مئة وبضعة عشر مصنفًا في الفقه، والبيان والمعاني وغيرهما. وأفرد له ابنه نجم الدين ترجمة خاصة في كتيب، وأسماه بلغة الواجد في ترجمة شيخ الإسلام الوالد.– الغزي: الكواكب السائرة ج٣/٣–١٠ ومحمود الشيخ: مقدمة كتاب لطف السمر وقطف الثمر لنجم الدين الغزي، ج١/٢٢ – الأعلام، ج٧/٢٨.

تدريسه في عدة مدارس أخرى. وذكر الحسن البوريني[40] والنجم الغزي والمحبي، عن ترجمتهم العالم أحمد بن المنقار الحلبي[41] بأنه درّس في المدرسة الفارسية أيضًا، بل إن البوريني كان من العلماء الأدباء الذين عملوا في التدريس فيها، وكذلك أحمد بن قولاقسز[42].

وإذا كانت كتب التراجم المشار إليها آنفًا قد ذكرت أن أولئك العلماء قد درّسوا في المدرسة الفارسية، مما يثبت أنها كانت لا تزال على حيويتها وعطائها، فإن أخبار نشاط تلك المدرسة شبه مفقودة عن المرحلة الممتدة من أربعينيات القرن الحادي عشر للهجرة/ السابع عشر للميلاد وحتى آخر القرن. ولكن إذا كنا نفتقد أخبار هذه المدرسة في كتب التاريخ الموجودة بين أيدينا اليوم، فإن بعض وثائق سجلات المحاكم الشرعية بدمشق قد تسد بعض هذا

(40) هو حسن بن محمد الصفوري الأصل، الدمشقي، بدر الدين البوريني الشافعي. ولد في صفورية من أرض فلسطين سنة (٩٦٣هـ)، وتوفي في دمشق (١٠٢٤هـ). هاجر مع أبيه إلى دمشق، وأخذ عن كبار علماء عصره في كل علم إسلامي. وتصدر للتدريس ولاسيما التفسير. وعين قاضيًا بالركب الشامي ودرّس في مجموعة من المدارس، ومنها الفارسية. وأتقن اللغتين التركية والفارسية إلى جانب العربية. ومن أبرز مصنفاته في التاريخ: تراجم الأعيان من أنباء الزمان. – الغزي (نجم الدين): لطف السمر وقطف الثمر، ج١/٣٥٥– ٣٠ والمحبي: خلاصة الأثر، ج٢/٥١– ٦٢.

(41) حلبي الأصل، دمشقي المولد والنشأة، حنفي المذهب، برع في العربية وتميز على أقرانه. وقال الشعر الحسن. ودرّس بالمدرسة الفارسية إلا أنه بعد سفره إلى إسطنبول تعاطى المكيّفات، فاختل تفكيره، فأعيد إلى دمشق. وبقي على حاله تلك ثلاثين سنة وتوفي سنة (١٠٣٢هـ). – البوريني: تراجم الأعيان في أنباء الزمان. دمشق١٩٦٦، ج١/١٦٣ والمحبي، خلاصة الأثر ج١/٢٩٦ والأعلام، ج١/٢٢٥.

(42) هو أحمد بن محمد بن أحمد شهاب الدين. حلبي الأصل، دمشقي المولد، عرف بابن قولاقسز. وقلاق سيز: تعبير تركي يعني مقطوع الأذن. كان واسع الاطلاع ومن أجلّ الفقهاء، وكان مرجعًا للناس في مشكلاتهم. درّس بالمدرسة الفارسية. (٩٨٣– ١٠٣٧هـ).

النقص، لا عن المرحلة المشار إليها فحسب، وإنما عن أواخر القرن الحادي عشر للهجرة، السابع عشر للميلاد، إذ تم العثور على مجموعة وثائق تبين أوقاف تلك المدرسة مفصلة، وإيراداتها، ونفقاتها، والعاملين فيها والمستفيدين منها، وتوضح بعض المنازعات حول تلك الأوقاف، بين متوليها بصفة خاصة، والدارسين فيها، والطامعين بها.

والوثيقة الأولى من هذه الوثائق، وقد تكون أهمها، تقع في الصفحتين (١٩) و(٢٠) من السجل (١٨) من سجلات المحاكم الشرعية بدمشق؛ وقد حملت العنوان التالي باللغة التركية:دفتر محصولات وإخراجات وقف مدرسة فارسية باطن دمشق، در زمان مفخر العلماء والمدرسين الكرام حمزة أفندي تولى وقف مزبور، ومدرس مدرسة مزورة)) أي هي بيان بأوقاف المدرسة الفارسية، وما تدرّ من مال، وكيفية توزيع هذا المردود على الذين وقفت عليهم، وعلى شؤون المدرسة، وما تتطلبه من مصروفات متنوعة؛ وذلك زمن المتولي حمزة أفندي[43]. وتاريخ الوثيقة غرة ماه محرم الحرام سنة مئة وألف إلى ختام ذي الحجة الواقع خلالها فيها من غير تدخل إيراد ومصرف)). أي من

(43) من نزلاء مدينة دمشق وأحد مشاهير صوفيتها (١٠٣٨– ١١٢٠هـ). وكان جد المؤرخ المرادي صاحب كتاب ((سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر)) لأمه. فقد تزوج جد المؤرخ من ابنته عائشة، ورزق منها بوالد المرادي وأعمامه. وقد ولّي وقف الفارسية لمدة طويلة، وسكن فيها، ودرّس، وقرأ مع الطبة ((الفتوحات المكية)) لابن عربي، والعلوم العقلية والنقلية. وقد اجتمع عليه من الطلبة، الفرضي، سعدي بن عبد الرحمن الحسيني بن حمزة الدمشقي، وقاسم بن سعيد المغربي المالكي، نزيل دمشق. ودفن بباب الصغير قرب ضريح بلال الحبشي.

انظر: المرادي، سلك الدرر، ج٢/٧٥ والمرادي نفسه: مَطْمح الواجد في ترجمة الوالد الماجد. مخطوط في المتحف البريطاني تحت الرقم SCH 5501–OR 4050 ، ورقة ٣٢ب– ٣٣آ.

٢٦ تشرين الأول ١٦٨٨ حتى ١٤ تشرين الأول ١٦٨٩.

ويُلاحظ بعد مقابلة ما ورد في هذه الوثيقة مع ما أتى في كتاب النعيمي عن أوقاف تلك المدرسة، والموقوف عليهم فيها[44]، بأن هناك تطابقًا تامًّا؛ أي أن الوقف لم يطرأ عليه تغيير أو تبديل. ويمكن تصنيف ما ورد في تلك الوثيقة في الفقرات التالية التي تبين مايغلُّه كل جزء من الوقف، وكيف ينفق وارد ذلك الوقف:

أولاً – الوقف وما يدرُّه:

وقد أسمي في الوثيقة «أصل مال وقف مزبور»، وجاء أنه يبلغ (٤.٢٥) أربعمئة وأربعة عشر قرشًا ونصف القرش[45]، وتفصيله كما يلي:

٣٥٠ غرشًا	عن محصول قرية صحنايا، تابع وادي العجم[46]، فدان[47]

(44) انظر: النعيمي: ج١/٤٢٧– ٤٢٨، وانظر الصفحة (١٩) من الوثيقة المذكورة أعلاه أيضًا.

(45) الغرش أو القرش، نقد فضي أوربي في الأصل. وأكثر ما اشتهر منه الفلمنكي (الهولاندي). وكان يحمل صورة أسد، ولذا سمي بالأسدي، أو الأرسلاني أو الأَصْلاني (أرسلان وأصلان كلمتان تركيتان تعنيان بالعربية الأسد). وهناك أيضًا القرش النمسوي المسمى بالريال أو قره قروش، الذي يفوق بوزنه مقدار الثُمن عن القرش الفلمنكي. وهناك الريال الإسباني، الذي كان المصريون يسمونه أبا مدفع. وقد سكّت الدولة العثمانية في أواخر القرن الحادي عشر للهجرة/السابع عشر للميلاد قرشًا عثمانيًّا، قلَّدت به القروش الأوربية، وكان يعادل ثلثي القره قروش. وكان الريال هذا يعادل في أواخر القرن السابع عشر (١٦٠) أقجة (عثماني)، وهي العملة الفضية العثمانية الصغيرة.

(١٦٠) Bouven, Islamic Society and the West. 2 Parts &Gibb
54. –Part II, P. 53 – ١٩٥٧ – London 1951

(46) هو ماكان يسمى في التقسيم الإداري الشامي السبق بقضاء قطنا. ويحده من الشمال قضاء الزبداني، ومن الشرق قضاء دمشق، ومن الجنوب إزرع والقنيطرة، ومن الغرب راشيا

	(٢١)، در عهدة رعايا بروجه إجارة، وإيجارها في سنة (٣٥٠) ثلاثمئة وخمسون غرشًا.
٦٠ ستون غرشًا	محصول دكاكين سوق السلاح في الصف الشمالي، ومحصول دكاكين سوق الدهيناتية[48] في الصف الغربي، في سنة (٦٠) ستون غرشًا.
غرش ونصف١.٥٠	محصول حكر أطباق[49] (أي إيجار أطباق منزل في سنة (١.٥٠) غرش ونصف.
٠	محصول مزرعة فزارة[50]، تابع حوله[51] ط٦[52]: لا شيء.

وحاصبيا اللبنانين. ويقسم هذا القضاء إلى تحتاني وفوقاني. والفوقاني يشمل ناحيتي قطنا وبيت جن، ويسمى أيضًا إقليم البلاَّن، لكثرة نبات البلاّن فيه المستعمل في الكنس والوقود. والتحتاني يشمل ناحية الكسوة، وكان يضم سابقًا الزبداني، لكنه فصل عنه سنة ١٨٩٩، وربط بلواء دمشق. ولا يعرف سبب تسمية هذه المنطقة بوادي العجم.- أحمد وصفي زكريا: الريف السوري، مصدر سابق، ج٢/٣٦٧ ٣٦٨.

(47) الفدّان: مقياس مساحة، وهو سائد في مصر بصفة خاصة وفي بلاد الشام. وقد قدره القلقشندي بـ(٤٠٠) قصبة مربعة أو ما يعادل (٦٣٦٨)م^{٢}، أي أن القصبة تعادل (٣٩)م^{٢}. وقد تناقصت مساحة هذا الفدان فغدا منذ ١٨٣٠ يعادل (٤٢٠٠.٨٣٣)م^{٢} انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣/٤٤٦ – نتس، مصدر سابق/٧- ٩٨ ودائرة المعارف الإسلامية باللغة الفرنسية، الطبعة الجديدة. المجلد السابع – مادة مساحة Misaha و ص(١٤٠).

(48) سوق الدهيناتية: سوق في البزورية، وكانت فيه المدرسة الجوزية التي كانت أيضًا مقر المحكمة الكبرى بدمشق. ويقع هذا السوق جنوبي جامع بني أمية.

(49) يبدو أن المراد من الأطباق أي الطبقات أو طوابق المنازل. ولعلّه يقصد بيت ابن المزلق في الوقف.

(50) أتت في الوثيقة «لزازة»، ولعلّها تحريف أو تصحيف نطق أو كتابة، ولاسيما أن الوثيقة قد دونت بالتركية. ورسم كتابتها متشابه مع «فزارة» القرية التي ورد اسمها في الوقف في كتاب النعيمي وقد عُرّف موقعها سابقًا.

(51) لعلّ المقصود هو سهل الحولة. واسمه مشتق من البحيرة المعروفة منه بهذا الاسم.

	وأتت في الوثيقة بتعبير (باقي عطل).
٣ثلاثة غروش ٤١٤.٢٥	محصول زراعة «بالين» تابع البقاع ط٣، (٣) ثلاثة غروش. ويكون المجموع كما ورد في أعلى الوثيقة (٤١٤.٢٥) أربعمئة وأربعة عشر قرشًا ونصف القرش.

ثانيًا – جاء في الوثيقة ذاتها (الصفحة (١٩) و(٢٠) منها) تحت عنوان: «الموضوع من ذلك» أي (المصروف من ذلك) أي المصروف من إيراد الوقف مايلي؛ وقد وُزِّع على الأقسام التالية:

-1 **وظايف خدام وقف**، وقيمته (١٨٩) قرشًا

وهذه الوظائف هي:

٢٠ عشرون غرشًا ١) وظيفة «متولي»، ونصيبه في يوم: (٢٠)عشرون قرشًا، وإلى جانب هذا الرقم خطوط وأرقام لم تفهم. ولم يُؤكد أن هذ النصيب سنوي.

١٥٠ غرشًا ٢) وظيفة «مدرّس» في يوم (٥٠) قرشًا، وفي سنة (١٥٠) قرشًا.

٦ ستة غروش ٣) وظيفة خادم وبواب في سنة (٦) ستة قروش.

ويقع السهل في الزاوية الشمالية الشرقية من فلسطين. ويحده من الشرق هضبة الجولان السورية، ومن الغرب نهايات جل عامل وجنوبي لبنان، ومن الشمال جبل الشيخ. ومساحته (١٨٠)كم٢، وجزء منه تحت مستوى سطح البحر، ويمر فيه نهر الأردن ليكوّن بحيرة الحولة، التي قامت اسرائيل بتجفيفها بعد استيلائها على المنطقة. – الموسوعة الفلسطينية، ٤أجزاء، دمشق ١٩٨٤، ج٢/٢٩٠– ٢٩٤ وأحمد وصفي زكريا، المصدر نفسه، ج٢/٤٩١– ٤٩٤.

(52) ورد في الوثيقة حرف الطاء منفردًا عند الحديث عن مزرعة لزازة (فزارة) وكذلك عند الحديث عن مزرعة بالين التي أتت مصحفة فيالين. ويقصد هنا بحرف (الطاء) مختصر قيراط. فمن المعروف أن أي أرض أو عقار مهما بلغت مساحتاهما، ينظر إلى كل منهما على أنه مؤلف من (٢٤) قيراطًا. فالقراريط الستة في مزرعة (فزارة) تعادل ربع فدادين القرية المذكورة، وكذلك في مزرعة بالين (فيالين)، فإن القراريط الثلاثة تعادل ثُمن المزرعة.

٩ تسعة غروش ٤) وظيفة «جابيان وقف» في سنة () تسعة قروش. (أي جابي الوقف).
٤ أربعة غروش ٥) وظيفة «شيخ أحمد» قاري مصحف شريف في سنة (٤) أربعة غروش.
١٨٩ ويكون مجموع ماينفق على تلك الوظائف الخمس (١٨٩) مئة وتسعة وثمانون قرشًا.

-2 ٤٠أربعون غرشًا – مايُصرف على ماأسمته الوثيقة **وظائف** «**طالبان علم**»، أي (طلاب علم) وقيمته (٤٠) أربعون غرشًا، وعدد الظائف عشرة هي:

	وظيفة	وظيفة	وظيفة	وظيفة	وظيفة
٤٢٩ غرشًا	شيخ خليل طالب علم في سنة (٤) قروش	سيد أحمد طالب علم في سنة (٤) قروش	قاضي مالكي طالب علم في سنة (٤) قروش	شيخ فضلي طالب علم في سنة (٤) قروش	أحمد جلبي جقمقي طالب علم في سنة (٤) قروش
	وظيفة	وظيفة	وظيفة	وظيفة	وظيفة
	شيخ سعدوي طالب علم في سنة (٤) قروش	شيخ عبد اللطيف طالب علم في سنة (٤) قروش	أحمد جلبي ترجمان طالب علم في سنة (٤) قروش	شيخ إبراهيم طالب علم في سنة (٤) قروش	شيخ حسن طالب علم في سنة (٤) قروش

ولم يُعثر على ترجمة لأولئك الطلاب في المصدر التاريخي الشامي المعاصر آنذاك، وهو سلك الدرر للمرادي. وهؤلاء الطلبة العشر هم الذين حددهم الواقف منذ نشأة المدرسة، وكان قد خُصَّ كل واحد آنذاك بالنسبة للنقد المستخدم في تلك المرحلة الزمنية، بـ (٤٥) خمسة وأربعين درهمًا في كل شهر. ويلاحظ وجود وظيفة «قاضي مالكي» بين طلاب العلم. ويبدو أن القاضي المالكي كان يستفيد من تلك الأوقاف منذ نشأة هذه المدرسة بدليل أن الوقف خصَّ فقهاء نواب القاضي بذلك العون المادي. (النعيمي، ج١/٢٨).

ثالثًا- وظايف قاريات أجزاء غروش ٢٨ (قرّاء أجزاء من القرآن الكريم)

وظيفة	وظيفة	وظيفة	وظيفة	وظيفة
أحمد أفندي بكري زاده	إسمعيل جلبي كريمي	سيد إبراهيم حصري	شيخ أحمد	صادق جلبي
في سنة غرش (٢)	في سنة غرش (٢)	في سنة غرش (٢)	في سنة غرش (٣)	في سنة غرش (٢)
وظيفة	وظيفة	وظيفة	وظيفة	وظيفة
شيخ اكميل رملي	شيخ إبراهيم اسطواني	شيخ عبد اللطيف	شيخ مصطفى ولد الشيخ عثمان	شيخ يسين
في سنة غرش (٢)	في سنة غرش (٢)	في سنة غرش (٢)	في سنة غرش (٢)	في سنة غرش (٢)

وظيفة سيد حسين ولد سيد قدسي: شيخ القُراء. في سنة (٨ غروش)

لقد أوردت الوثيقة أسماء عشرة قراء للقرآن الكريم، لم يعثر لم على ترجمة، وأضافت إليهم اسم «شيخ القراء». وهؤلاء القراء العشرة كان الوقف منذ البدء قد نصَّ على عددهم، كما نصَّ على مُقْرِئَيْن آخَرَيْن إلى جانبهم يحضران عقب الظهر والعصر. فإذا ضم إلى أولئك العشرة ماأتى تحت اسم «قارئ مصحف شريف» الذي ورد ضمن وظائف خدام الوقف، وكذلك شيخ القراء، يكون العدد اثني عشر قارئًا وهو الذي نصّ عليه الوقف في أصل.

أما ماوُرد عن حصة «شيخ أحمد» بأنها ثلاثة غروش، فيظن أنها غلطة قلم، لأن المجموع صحيح، وهو (٢٠+٨= ٢٨ثمان وعشرون) كما ورد في حصة «قرّاء لأجزاء».

رابعًا- وقد أتى هذا **القسم الرابع** من الوثيقة حت عنوان كبير نسبيًا و«**الإخراجات**» ويقصد بها **النفقات الأخرى الضرورية للمدرسة، وقيمتها (١٥٨) مئة وثمان وخمسون غرشًا**، موزعة على الصورة الآتية:

٧٣.٥٠ القرش - أداء مال الحرمين الشريفين وهو (٧٣.٥٠) ثلاث وسبعون ونصف القرش في سنة. لقد كان للحرمين الشريفين حصة في الوقف من وارد قرية صحنايا، إذ ذكرت الوثائق أن للحرمين

	الشريفين (٣) ثلاثة فدادين من أصل (٢٤) أربعة وعشرين فدانًا هي فدادين القرية. وكانت حصة وقف الفارسية (٢١) واحدًا وعشرين فدانًا من تلك الفدادين.
٤٤ قرشًا	–نفقات النظارة: وهي مقابل ما كانت تتقاضاه الخزينة العثمانية مقابل أجر ناظر الوقف (٤٤) غرشًا.
٢.٥٠ قرشان ونصف ١٢٠قروش	– خرج تذكرة ميري. ويبدو أنه ثمن إخراج تذكرة من الميري (خزينة السلطان) بتسلم ورق حسابات الوقف (٢.٥٠) غرشان ونصف
٦.٥٠	– رسم محاسبة قاضي: يقوم القاضي سنويًا بمحاسبة المتولي، عن واردات الوقف ونفقاته، وبحضور الوالي. وترسل صورة من الحساب إلى إسطنبول.
٣.٥٠	– طينة سوق سلاح: أي تكاليف ((تطيين)) أي وضع ((طينة)) لجدران وسقف دكاكين سوق السلاح. وهي عملية ترميمية كانت تجري تقريبًا كل عام.
٣	– ترميم حانوت: ترميم الحانوت أي إصلاح ما أفسده الدهر فيه. – عَدَسَة دكاكين: ((عدسة)): تعبير عامي يقصد به تغطية أرض الدكان أو أية أرضية أخرى بطبقة من الملاط تغطي التراب، وتسوّي الأرض.
١.٥٠	– عمارة دكان حلاّ: يبدو أن عمارة دكان حلاق هي لتسهيل الحلاقة للعاملين في المدرسة.
١	– رسم معقول: لم يُعرف المقصود من هذا الرسم، ولم يعثر على مصدر لشرحه.
٣	– أجرة شاوي ماء: أي أجرة الذي يحمل الماء إلى المدرسة.

٦	– بهاء زيت: أي ثمن الزيت المخصص للقنديل، أو الإضاءة.
٢.٥٠	– حُصُر مدرسة: كان يُمدّ في أرض قاعات المدرسة حُصر بدل السجاد، وتصنع الحصر عادة من نسيج نبات «القصب» أو «الحلفا».
١	– قطن وقناديل ومكانس: وكان يستخدم القطن يصنع فتيل القناديل، أما «المكانس» فهي بالطبع للتنظيف.
١٥٨	

وبلغ مجموع تلك «الإخراجات» المتفرقة (١٥٨) مئة وثمانية وخمسين غرشًا.

والمجموع الكلي للمصرف: ١٩٨+ ٤٠ (٢٢٩)+ ٢٨+ ١٥٨= ٤١٥ – والوارد هو: ٤١٤.٥ .

واختتمت الوثيقة بما يلي: «جمع الإيراد والصرف، بعد دفع علوفة ونص سنة تاريخه لجهة «الميري»، بموجب الأمر الشريف السلطاني، فلم يتأخر لأحد من المرتزقة، ولا للمتولي في جهة الوقف شيء. حرر ذلك في خامس ذي القعدة الحرام سنة مئة وألف (٥ذي القعدة١١٠٠هـ/ ٢١آب١٦٨٩م). والمحضر بإمضاء المولى الهمام أبو بكر أفندي القاضي بدمشق الشام[53].

أما الوثائق الأخرى من وثائق المحاكم الشرعية بدمشق حول المدرسة

(53)وهذا القاضي أتى بعد وفاة قاضيها حفظي مصطفى أفندي سنة١١٠٠هـ. وبقي فيها حتى ١١٠٦هـ.
انظر حوله: محمد بن جمعة المقار في كتاب «ولاة دمشق في العهد العثماني»،مصدر سابق/٤٧.

الفارسية فمضمونها ادعاءات متنوعة تدور حول وقف المدرسة، وبعض تعيينات جديدة في مجال العمل فيها. وقد يكون من أهمها شكوى الفلاحين العاملين في حصة وقف المدرسة، من متولي الوقف، وهو كما أشير سابقًا حمزة بن بيرم الكردي. إذ أنه أخذ أثناء توليته من الزراع مبلغًا كبيرًا تجاوز كثيرًا المبلغ الخاص بالوقف. وهم في شكواهم يطلبون رد المبلغ المتجاوز، الذي أخذه المتولي منهم، ولعدة سنوات دون وجه شرعي.

وهكذا يظهر من تلك الوثائق بأنه كان هناك شك بتصرفات المتولي على الوقف، أكان في الجباية أم في الصرف، مع أن ذاك «المتولي» كان من العلماء المتصوفة!! ويظهر من تلك الوثائق أيضًا، عدم تصديق الفلاحين الحجج التي كان يتذرع بها، ولا تأكيده أنه كان يقوم بالحساب الشرعي الصحيح. فالمتولي كان في الحقيقة ينتقص من مال الوقف بطريقة أو بأخرى، ويجوز على الفلاحين لينال أكبر قسط من حاصل ذلك الوقف.

وخلاصة القول، يتبين من كل ماأتى في الوثائق، أن المدرسة الفارسية الدمشقية كانت عاملة حتى منتصف القرن الثالث عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي، وأن المتولي كان طامعًا بوقفها، ولاسيما منه ماكانت تدرّه قرية صحنايا. كما أن تلك الوثائق تبين أن تولية المدرسة كانت بعد حمزة بيرم الكردي بيد الأسرة المرادية[54]، التي كانت على صلة قربى من المتولي السابق.

(54) كانت المدرسة الفارسية في النصف الثاني من القرن الثاني عشر بتولية ولدي محمد بن محمد المرادي. وهو جد المؤرخ محمد خليل المرادي. وقد ولد في القسطنطينية سنة (١٠٩٤هـ/١٦٨٣م)، عندما كان والده مراد اليزبكي البخاري فيها. وتلقى العلوم

ولكن إذا كانت الوثائق تبيّن لنا بعض أحوال المدرسة الفارسية الدمشقية حتى الأربعينيات من القرن الثاني عشر الهجري، فإن كتب التاريخ الدمشقية بصفة خاصة، لا تقدم شيئًا عن النشاطين العلمي والتعليمي لهذه المدرسة أثناء النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري، ولو خلال القرن الثالث عشر/ التاسع عشر الميلادي؛ فهي غائبة عن المسرح التعليمي في كتب المؤرخين الدمشقيين، وحتى في مؤلفات المؤرخ المرادي، مع أن أسرته كانت هي المتولية عليها.

ولا يعرف في الحقيقة السبب الأكيد لغياب هذه المدرسة بالذات عن مجال النشاط التعليمي في دمشق في تلك المرحلة، وقبل تثبت النظام التعليمي الحديث فيها؛ إذ لم يرد ذكرها في كتب المؤرخين الدمشقيين، مع ورود أسماء عدد كبير آخر من المدارس الناشطة، فهل هو الضياع التدريجي لأوقافها، وقد رأينا الطمع بها والنزاع حولها؟؟ أو ربما لعلّ ذلك يرجع إلى

على أبيه ومشايخ عصره. وقام بعدة رحلات على عادة علماء زمنه، واستقر في دمشق، واتجه إلى العبادة والتصوف. وكان مقربًا من السلطان العثماني، وأنعم عليه بقضاء المدينة المنورة. وله عدة تصانيف ورسائل. وتوفي في دمشق سنة (١١٦٩هـ/١٧٧٥م).

انظر: المرادي: عرف البشام فيمن ولي فتوى دمشق الشام. تحقيق: محمد مطيع الحافظ ورياض عبد الحميد مراد. دمشق، (١٣٩هـ/١٩٧٩م). مقدمة الكتاب (٢) ص. ز.

– المؤلف نفسه، مطمح الواجد في ترجمة الوالد الماجد. مخطوط في المتحف البريطاني، الورقات ٣ب، ٦آ. Catalogue Or 4050. Sch5501

– وانظر أيضًا ترجمة «حمزة بيرم الكردي»، رقم (١٢٤) في هذا البحث، لتعرف درجة القرابة.

نشأة مدارس جديدة نافستها في هذا المجال التعليمي – العلمي، فاجتذبت إليها العلماء والطلبة! إذ من المعروف، أنه يطيب للنفس وللفكر الأخذ بالجديد والمتجدد، ولو كان هذا الجديد في ظاهره فقط لا في عمقه! وفي الواقع نشأ في القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي، في مدينة دمشق، وأثناء مرحلة حكم آل العظم فيها، عدد من المدارس. كالمدرسة الإسماعيلية[55] في سوق الخياطين، التي أسست سنة (١١٤١هـ/ ١٧٢٨م)، وكانت من إنشاء إسماعيل باشا العظم وأسعد باشا العظم. والمدرسة السليمانية التي أنشأها سنة ١١٥٠هـ سليمان باشا العظم في باب البريد[56]. والمدرسة المرادية[57] التي أقامها الجد الأول للأسرة المرادية مراد المرادي[58] جنوبي الظاهرية الجوانية سنة (١١٣٢هـ/ ١٧٢٠م). والمدرسة النقشبندية البرانية[59] في سوق صاروجا، وقد أنشأها هي الأخرى مراد المرادي في داره، وبنى إلى جانبها مسجدًا. والمدرسة العبدلية[60] التي أقامها والي الشام عبد الله باشا العظم سنة (١١٩٣هـ/ ١٧٧٩م)، في سوق السلاح مجاورة

(55) كرد علي: خطط الشام، ج٦/٩٩.

(56) المصدر نفسه.

(57) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها.

(58) هو مراد بن علي بن داود الحسيني الأزبكي البخاري (١٠٥٠– ١١٣٢هـ) ولد في سمرقند، وأصيب بالشلل، وهاجر إلى الهند، والعراق، وبلاد فارس، وإسطنبول، ومصر، والحجاز. ومنحه السلطان العثماني في بعض قرى دمشق إقطاعًا، وتوفي في الآستانة. وكانت له مؤلفات باللغات العربية والفارسية والتركية.

انظر: الزركلي: الأعلام، ج٨/٨١– ٨٢.

(59) كرد علي: خطط الشام، ج٦/٩٨.

(60) المصدر نفسه /٩٩.

للمدرسة الفارسية.

إن تلك المدارس الجديدة، لابد أن تكون قد جذبت أنظار الشيوخ العلماء، وطلبة العلم إليها، وهي المشمولة مبدئيًا برعاية الحاكم ودعمه. ويضاف إليها أن التعليم في الجامع الأموي وهو القريب من المدرسة الفارسية، لايزال له نشاطه الكبير ورواده. وبذلك هُجرت المدرسة الفارسية شيئًا فشيئًا، في الوقت الذي كانت فيه أوقافها تُسرق، وسكان المنطقة يختلسون أجزاءً منها ليحولوها إلى حوانيت. وهكذا لم يبق منها مع الزمن، سوى ذلك المصلَّى الصغير الذي أشير إليه، كما لم يبق من أوقافها الثمينة سوى الدكاكين الصغيرين الملتصقين بأحد جدرانها.

وقد يُتساءل في آخر هذا المطاف الطويل، هل استثارت هذه المتابعة لتاريخ المدرسة الفارسية من مدارس دمشق القديمة، وسيرة حياتها، ونظام العمل فيها، منذ نشأتها وحتى فقدانها نشاطها التعليمي، وبصفتها نموذجًا لتاريخ أية مدرسة من تلك المدارس الإسلامية العربية الغابرة – أعود فأكرر هل استثارت هذه المتابعة – في أذهان الباحثين التاريخيين والأثريين تفكيرًا جديًّا بإقامة مشروع علمي، لتتبع حياة مثل المدارس المماثلة، التي زُرعت في أنحاء كثيرة من عالمنا العربي والإسلامي؟ كي يضع مثلُ هذا المشروع التراثَ التعليمي الحضاري، بصفة خاصة، في دائرة النور، فيكشف أثر البث التعليمي العلمي في العطاء الفكري، والنماء الحضاري، للثقافة العربية الإسلامية وديمومتها، فيتولد في نفوس الباحثين في مثل ذلك المشروع، إذا تم بتنبيه، إصرار وتشبث بمبدأ يقول بإيمان، إن تلك المدارس، الباقي منها والمندثر، كانت عطاءً حضاريًا

متنوع الأطياف ومشعًا، ويجب ألا يموت تحت ركام أبنيتها، وفقدان تمويلها، بل يجب أن تُحيى ويذكّر به دومًا بالكلمة المنطوقة والمكتوبة وبالترميم العمراني إذا أمكن، وأن يكون له في عصرنا المعلوماتي الحاضر موقع مميز وغني على الشابكة، تسعى الأجيال الحاضرة والقادمة لو لوجه التزود منه وتنميته.

فكلما ساقتكما أي أختي وأي أخي، أقدامكما إلى الباب الجنوبي من الجامع الأموي، تذكرا أن تعرّجا على مايسمى اليوم بالمجد الفاسي في قلب سوق البزورية بدمشق، وأن تبعثا منه بتحية تقدير لمن بنى المدرسة الفارسية، وهو لم تتأصل في نفسه بعد اللغة العربية وعلوم الدين، إلا أنه آمن بالقيمة الإنسانية للعلم والتعلم والتعليم؛ وتحية مماثلة لمن عمل في هذه المدرسة وأمثالها، في الماضي الغابر، تدريسًا، وتعليمًا، وتعلمًا، هداية.